

المدرسة التونسية ورهانات التحول التكنولوجي

The Tunisian school system and the challenges of technological transformation

آمال ميساوي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس-تونس

amelmissaoui50@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/12/31

تاريخ القبول: 2025/12/03

تاريخ الإرسال: 2025/11/25

ملخص

إنَّ التحوّلات السريعة التي تعرفها مجتمعاتنا، نتيجة الطفرة التكنولوجية والمعلوماتية وهيمنتها على مختلف مفاصل المعيش اليومي للأفراد، تحيلنا إلى الحديث عن الثقافة الافتراضية وعن الهوية الحاصلة بين متطلبات الحياة المدرسية والضوابط التي تفرضها، وبين نمط عيش التلميذ المراهق، الذي ينخرط في منطق الممارسات اليومية، التي تعيد انتاج خيارات اقتصادية وثقافية محدّدة مسبقا، ضمن سياقات عالمية تستهدف تنميط المجتمعات والثقافات والسيطرة عليها، من خلال ممارسة عنف رمزي هادئ ولطيف، يمرّ عبر هياكل ووسائط تكنولوجية وإعلامية سريعة التطوّر.

وبناء على ذلك، تكون المدرسة التونسية اليوم، أمام تحدّي مدى القدرة على مسايرة نسق التغيّرات الثقافية والمجتمعية، ومدى تلائم المنظومة التربوية والتعليمية مع تطلّعات وخيارات التلاميذ المستقبلية. هذا، طبعا، دون أن ننسى التأكيد على مسألة تكامل الأدوار بين الأسرة والمدرسة في مواجهة انفتاح التلاميذ، خاصة منهم المراهقين، على مواقع التواصل الاجتماعي، وكيفيات توظيف تكنولوجيات الاتصال والاعلام الحديثة في عمليات التعليم والتعلّم.

الكلمات المفتاحية: نمط العيش؛ المراهق؛ المؤسسات الاجتماعية؛ التحول الاجتماعي والثقافي.

Abstract

The rapid transformations that our societies are undergoing due to the technological and information boom, and its dominance over various aspects of individuals' daily lives, lead us, to talk about virtual culture and the gap between the requirements of school life and the controls it imposes, and the lifestyle of the adolescent student. Who engages, in the logic of daily practices that reproduce pre-determined economic and cultural choices, within global contexts that aim to stereotype societies and cultures and control them, through the practice of calm and gentle symbolic violence that passes through rapidly developing technological and media structures and means. Accordingly, the Tunisian school today, faces the challenge of the extent of its ability to keep pace with cultural and societal changes, and the extent to which the educational and teaching system is compatible with the aspirations and future choices of students. This is, of course, without forgetting to emphasize, the issue of the complementarity in roles, between the family and the school, in the face of the openness of students, especially adolescents, to social networking sites and the way of using modern communication and media technologies in the teaching and learning processes.

Keywords: lifestyle; the adolescent; social institutions; social and cultural transformation.

مقدمة

التنوع حدّ التعقّد، هو أحد أبرز سمات المجتمعات الحديثة، ومع ذلك نجدها تتميز "بصفات مشتركة منها أن ثمة بنية من العلاقات الاجتماعية تنظم أعضائها وتنظّمهم وفقا لتوجهات ثقافية فريدة ومتميّزة". (غدنز. 2005. ص 79) هذه الجدليّة القائمة على التنوع وعلى التشابه في الآن ذاته، تتيح للفرد إمكانية تقمّص الدور الذي يتلاءم مع وضعيّة تواجدّه ومركزه ضمن ديناميكيّة المعيش اليومي، الذي يتشكّل وفقا لمقتضيات الأنماط الثقافيّة والقيميّة والفكريّة السائدة في المجتمع.

ومهما كانت أنماط المعيش التي ينتهجها الأفراد، وباختصار ثقافتهم، فإنها بالأساس متوارثة بواسطة المؤسسات التي يلعب البعض منها دورا اجتماعياً متنامياً. (Boudon.2003.p77) فالثقافة بوصفها نمط عيش شعب أو جماعة هي مُكتسب إنساني، ونلاحظ أنها تحتفظ بشيء من الاستقرار، ولكنها تتأثر بالتغيرات المتواصلة التي تحدّد مسار حياتنا (Boudon.2003.54) .

ولا بدّ من الإشارة هنا، إلى أنّ نمط العيش لا يتطابق بالضرورة مع مستوى العيش، حيث يبيّن "هالباوكس" في كتابه " الطبقة العاملة ومستوى العيش" أنّ هذا التناقض يمكن إدراكه من خلال التباين في العادات الاستهلاكية والممارسات والسلوكيات الاجتماعية، التي لا ترتبط بالضرورة بالمعيشة اليومية. وينعكس ذلك على مستوى التمثلات والتصورات والتطلّعات التي ينسجها الأفراد وتشكّل نظرتهم للحياة. (Halbwachs.1912).

وفي هذا الإطار، فإنّ الثقافة بما تتضمنه من مواقف مجتمعية إلى جانب المؤسسات الاجتماعية تشكّل تأثيراً بالغ القوة من حيث بلورة وصل هويتنا الشخصية وبناء ذاتنا الاجتماعية. وتتمثّل هذه المؤسسات على وجه الخصوص في النّظام التعليمي، المنظّمات الدينية ووسائل الإعلام (David M.Newman. Jodi O'Brien.2004.p147) ومختلف الوسائط التكنولوجية الحديثة.

وبناء على ما تقدّم، يجوز القول بأنّ مستقبل المجتمع بكلّ مكوّناته، رهين القدرة على البناء السليم لأجيال اليوم. من خلال تقديم نماذج تربوية وبيداغوجية، تضمن التكافؤ في الفرص وتنمّاشي مع مقتضيات التحوّل السوسيو-ثقافي الذي أوجد متطلّبات وحاجيات جديدة، ويتجسّد ذلك بالاستثمار في قطاع التعليم من أجل التنمية المستدامة وهي مسألة تعترضها العديد من الصعوبات خاصة منها: ضعف الموارد المالية المخصّصة للمؤسسات التعليمية. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ جودة حوكمة مؤسسات التعليم وتحديد المعاهد الثانوية ترتبط بالعديد من العناصر لعلّ أوكدها بناء المهارات والتكوين المستمر للإطار التربوي والإداري، انفتاح المناهج التعليمية على التقنيات الحديثة، توفّر التجهيزات والمرافق الأساسية ...

ولعلّ ما يؤكّد شرعية إعطاء الأولوية للاستثمار في المنظومة التعليمية والتربوية، هو تزايد أهمية مؤسسة المدرسة اليوم، أمام تراجع أدوار الأنساق الاجتماعية الأخرى وخاصة منها الأسرة التي أصبحت تركز تحت أعباء واقع اجتماعي واقتصادي سريع التغيّر أرقه كاهلها ودفعها إلى التخلّي عن جزء من مسؤولياتها التنشئوتية، وتفويضها إلى مؤسسات اجتماعية أخرى. الأمر الذي يدفع إلى مزيد الاهتمام والتعمّق في دراسة العوامل التي تعيق أداء المؤسسة التعليمية والاسرية على حدّ سواء، مع

الأخذ في الاعتبار تأثيرات الثقافات الوافدة وتحديد المتأتبة من الاستخدام المتزايد لتكنولوجيا الإعلام والاتصال والإقبال الكبير على استهلاك ما تفرزه شبكات التواصل من أنماط معيش قد لا تتوافق مع تلك التي تقرها مجتمعاتنا. وكل هذه المسائل تحتاج إلى تكامل في الأدوار بين مختلف الأطراف المتداخلة في الشأن التربوي، وإلى قدرة كبيرة على إدارة هذه الديناميكية المجتمعية التي يحكمها التغير المتواصل بكل ما تحمله من تفاعل ومن صراع ومن جوانب أخرى رمزية مخفية تعمل على إنتاج وترسيخ الهيمنة الثقافية والتكنولوجية بشكل مخصوص.

دوافع البحث وأهميته

تكمن أهمية الدراسة، في محاولتها تفكيك إشكالية العلاقة بين الثقافة والمجتمع ومؤسّساته التنشؤيّة منها بشكل خاص والرؤى حول المراهقة والمراهقين، حيث أنّها تعدّ من أوكد الإشكاليّات في مجتمعاتنا الراهنة. الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل حول مكانة المراهق والموقع المنتظر منه، من حيث الإضافة والتجديد وإثبات الوجود، ولكن أيضا مساءلة الإحتياجات الفعلية للتلميذ المراهق التي فجّرها سياق اجتماعي وثقافي اتّسم بالتغيّر المتسارع على جميع المستويات.

فما يزيد أهمية لهذا الطرح، هو عامل التغيّرات التكنولوجية والاقتصادية و السوسيو- ثقافية، التي أطالت في فترة المراهقة والشباب وجعلت الحدود بينهما متمازجة ومتّسمة بعدم الاستقرار وعدم وضوح المستقبل. وهو ما يضع المؤسسة التربوية والتعليمية في مواجهة تحديات كبرى باعتبارها عماد التنمية والتطوّر والأداة الأساسيّة لتكوين الموارد البشرية القادرة على إنتاج الثروة المعرفية وكسب رهانات التحوّل التكنولوجي والاقتصادي.

مشكلة الدراسة:

تحدّد إشكالية الدراسة في السّؤال التّالي:

إلى أيّ حدّ يمكن القول أنّ مؤسسة المدرسة، قادرة اليوم على صياغة الاختيارات وعلى تجاوز الصعوبات التي يعرضها التحوّل الاجتماعي والثقافي في المجتمع التونسي؟
فرضية الدراسة:

انطلاقا من إشكالية الدراسة، قمنا بوضع الفرضية الآتية:

أنّ صعوبات نظام التعليم الثانوي، اليوم، متأتبة بالأساس، من التّباعد الحاصل في العلاقة بين المؤسسة التعليمية ومتطلّبات التحوّل الثقافيّ من جهة، وبين النظام التعليمي الراهن وانتظارات المتعلّم وأفاقه المستقبلية من جهة ثانية.

منهجية الدراسة وتقنياتها:

لقد أشار بورديو إلى أنَّ المناهج "الموضوعية" والمناهج "الذاتية" قد توافقا ضمن مفهوم "الهابيتوس" وهو مفهوم يفترض به استيعاب طريقة تشكيل الظروف الاجتماعية لأفعال الأفراد، فضلاً عن إثبات أن الأفراد -ضمن حدود معينة- قادرون على الاستجابة بطرق إبداعية للظروف التي يرون أنفسهم في ظلها. (ديفيد إنغليز. جون هيوسون، 2013، ص 243) "فالهابيتوس" يربط الفعل ببنية المجتمع في إطار بنيوية تكوينية، تعطي الأهمية الكبرى للفاعل والبنية المجتمعية على حد سواء." (جميل حمداوي، 2015، ص3).

وفي هذا السياق يقول بورديو "إن الهابيتوس في الواقع هو في نفس الوقت مبدأ مولد للأفعال القابلة موضوعيا للتصنيف ونظام تصنيف لهذه الأفعال. إنه في العلاقة بين القدرتين اللتين تعرّفان الهابيتوس، القدرة على تمييز وعلى تثمين هذه الممارسات والمنتجات (الدوق)، التي تشكّل العالم الاجتماعي المتصور، أي فضاء أنماط العيش." (Pierre Bourdieu.1995.p244) وبالتالي، فإنّ مفهوم الهابيتوس يقودنا إلى إعادة النظر في الأفعال والممارسات والروابط الاجتماعية وإلى تجاوز الجدول القائم حول الموضوعية والذاتية.

وبناء على ما تقدّم، حاولنا خلال إنجازنا للدراسة الحالية؛ إيجاد علاقة حوار بين التقنيات الكمية والتقنيات الكيفية. الأمر الذي استدعى منا الجمع بين مصادر أولية للمعلومات وأخرى ثانوية لتتكامل فيما بينها. وهذا التكامل من شأنه أن "يضمن مزيدا من الدقة والصرامة العلميتين." (المنصف ونّاس، 2010.ص13).

وتتمثّل المصادر الثانوية للبيانات في مصادر البيانات المتوفرة فعلا ونذكر منها الإحصائيات الرسمية، البحوث والدراسات التي تمّ إنجازها في علاقة بموضوع الدراسة المراد إنجازها. وقد اعتمدنا للغرض على نتائج المخطّط الاستراتيجي القطاعي التربوي 2016-2020 الذي أنجزته وزارة التربية في تونس سنة 2016. أمّا المصادر الأولية للبيانات والمتمثلة في نتائج الدراسة الأصلية، فقد تمّ تحصيلها من خلال استخدام تقنيات كلّ من المنهج الكمي والمنهج الكيفي.

تقنيات المنهج الكيفي:

يختلف المنهج الكيفي عن المنهج الكمي في كونه يبحث عن المعاني الخفية والرموز والدلالات غير الموضوعية والقيم والتمثّلات التي يطوّرها الناس حيال سلوك أو ممارسة ما ويتمّ من خلالها تبرير

وضعية معيّنة. فالمنهج الكيفي لا يبحث عن البرهنة والتفسير الموضوعي بل هو كما يقول Jean-Michel Bertholot في كتابه فضاء اللاحقين Les Vertus de l'incertitude منهج يقوم على التفهيم والاكتشاف. (Jean-Michel Bertholot.2004).

اعتمدنا في دراستنا كلّ من تقنية الملاحظة والمقابلة. والملاحظة ليست تقنية خاصّة بالمقاربة الكيفية، بل إنّ كلّ بحث علمي يبدأ بالملاحظة. فلا بدّ أن تبدأ كلّ دراسة ميدانية بالمقابلات الاستكشافية وبالملاحظة، وفي هذا المستوى بالتحديد تلتقي المقاربة الكيفية بالمقاربة الكمية ويبقى وجه الاختلاف بينهما أنّ الملاحظة في المنهجية الكيفية تستند إلى التفاصيل الخاصّة والخصوصيّة. فالملاحظة المباشرة سمحت لنا بمعاينة سلوكيات التلاميذ داخل وخارج المعهد، المكونات والتجهيزات المتوقّرة بالمعهد، الحالة العامّة للبنية من ناحية الصيانة، النظافة، التّجهيزات، جماليّة المكان... وأيضاً، واقع المعيش اليومي والامكانيّات المتاحة للفاعلين صلب المعاهد الثانوية التونسية.

اعتمدنا أيضاً، المقابلة الاستكشافية خلال انجازنا للدراسة الحاليّة، والتي تركز على عدد من المقابلات مع أشخاص ينتمون للوسط المزمع انجاز الدراسة حوله. وذلك بهدف تحديد مجموعة من محاور الاهتمام والأسئلة والأفكار التي أفادتنا في إعداد دليل المقابلة وأيضاً بناء معمار الاستبيان. حيث تبين لنا أنّه من المفيد القيام بعدد من المقابلات نصف الموجهة لتدعيم المعطيات التي تمّ تجميعها عن طريق الاستمارة خاصة وقد امتنع عدد كبير من أفراد عيّنة الإطار التربوي عن الإجابة على الأسئلة المفتوحة المضمّنة بالاستبيان.

تقنيات المنهج الكمي:

تعتمد المنهجية الكميّة على اختيار عيّنة تكون ممثّلة للمجتمع الأصلي، كما تستخدم الاستبيان كتقنية أساسيّة لجمع البيانات وتكون النتائج في شكل جداول ورسوم بيانيّة ونسب وأرقام. ويمكن القول بأنّ "فنّ بناء الاستبيان مرتبط بلحظات متتابعة تبدأ بتصميم البحث والتعريف الدقيق للموضوع، هيكل الاستبيان، البحث عن المؤشّرات وتحديدّها، اختيار العيّنة، استغلال البيانات والعمل على ترميز المعلومات ثمّ قراءة الجداول... واستخراج البيانات والتعليق عليها." (François De Singly.2016.p8).

وتجدر الإشارة إلى أنّنا اعتمدنا في هذه الدراسة على نموذجين من الاستبيان:

- استبيان موجه للتلاميذ،

- استبيان موجّه للإطار التربوي.

عينة الدراسة:

اعتمدنا كإطار للمعينة -بمعنى الطريقة التي تمّ استخدامها في أخذ العينة- السجلات المدرسية للتلاميذ وإحصائيات الأساتذة والإطار التربوي. وقد حرصنا على أن تتضمن العينة قدر الإمكان خصائص أفراد إطار العينة من ناحية مثلاً عدد الإناث والذكور، المستوى التعليمي، المهنة، ... وتجدر الإشارة إلى أنّ العينة التي تمّ اعتمادها في البحث هي ذات تمثيلية نسبية " فلا وجود لعينة حاسمة التمثيلية ومطلقة في العلوم الانسانية." (المنصف وناس، 2018).

واستناداً لما تقدّم تكوّنت العينة التي قمنا باختيارها لإنجاز الدراسة الميدانية من (126) مبحوثاً موزعة كالتالي:

عدد التلاميذ (85) مبحوثاً بنسبة (67.46%) من حجم العينة. عدد الأساتذة (27) مبحوثاً بنسبة (21.43%) مقابل (14) مبحوثاً من الأطر الادارية بنسبة (11.11%) من حجم العينة.

وقد شملت المقابلات -نصف الموجهة- التي تسقّى لنا إنجازها خمسة (05) إطارات تربوية بكلّ من المعهد الثانوي شارع 9 أفريل 1938 و المعهد الثانوي باب الخضراء وهما الإطار المكاني للدراسة. وامتدّت فترة انجاز الدراسة الميدانية من منتصف شهر مارس إلى أواخر شهر ماي من السنة الدراسية 2017-2018.

وتوزعت عينة الدراسة كما هو مبين بالجدولين عدد (1) وعدد (2):

♣ جدول عدد (1): عينة التلاميذ حسب متغيري النوع والشريحة العمرية

المجموع		الشريحة العمرية				النوع
		(22-19)		(18-15)		
النسب	التكرار	النسب	التكرار	النسب	التكرار	
54%	46	14%	12	40%	34	اناث
46%	39	7%	6	39%	33	ذكور
100%	85	21%	18	79%	67	المجموع

♣ جدول عدد (2): عينة الإطار التربوي حسب المهنة، الجنس، الشريحة العمرية، المستوى التعليمي، الأقدمية في المهنة، المعهد.

المهنة	الجنس		الشريحة العمرية		المستوى التعليمي		الأقدمية في المهنة		المعهد		المجموع
	ذكر	أنثى	-31 -46	45 60	ثانوي	تعليم عالي	سنة- 21	-20 35	شارع 9 أفريل 1938	المعهد الثانوي باب الخضراء	
الإداريون	4	3	1	6	5	2	4	3	4	3	7
المؤطرون: مرشد تربوي، قيم، عون تأطير	2	4	4	2	2	4	5	1	3	3	6
إطار إشراف: مدير، ناظر، قيم عام	1	0	0	1	0	1	0	1	1	0	1
أستاذ	14	13	15	12	0	27	17	10	13	14	27
المجموع	21	20	20	21	7	34	26	15	21	20	41

الدراسات السابقة: نقاط الالتقاء

تكمن أهمية الدراسات السابقة، في أنها تجنّب الباحث تكرار البحث في نفس الاشكالية، كما أنّها تساعد على بناء فرضيات البحث "واستكمال الجوانب التي وقفت عندها الدراسات السابقة، وبذلك تتكامل وحدة الدراسات والأبحاث العلميّة". (نادية سعيد عيشور وآخرون، 2017، ص95).

دراسة حول أوضاع الشباب المغربي أنجزها اتحاد المغرب العربي بناء على توصية من مجلس وزراء خارجية دول اتحاد المغرب العربي (الدورة 28 بطرابلس بتاريخ 2009/04/19). (اتحاد المغرب العربي، 2012)

تلخّصت إشكاليّة هذه الدراسة في القول بأنّ قدرة الشباب على ابتكار أساليب وآليات للتعبير عن وجوده وآراءه قد تنوّعت وتختلف، وقد تبدو في اللّباس أو "اللّغة الخاصة" التي تتداول في مواقف وردود أفعال، وهي كلّها تعبير عن احتجاجات صامتة تقول بأننا موجودون ولدينا صعوبات. وقد بيّن الرصد الميداني والنّظري بروز العديد من الظواهر مثل قوارب الموت وظاهرة العزوف عن التعلّم وعدم الاهتمام بالقضايا الفكرية... كما أنّ الشباب في المنطقة المغربية، يتكلّم بلغة سيكولوجيّة واجتماعية مختلفة عن لغة قاداته في مختلف المستويات، ممّا أحدث هوّة بين الفرد والمؤسسة بل وبين المؤسسات فيما بينها، ممّا يعني أنّ هناك تضارب في المعايير والقيم المعتمدة في ظلّ الافتقار لمشروع مجتمعي واضح المعالم.

هذه الدراسة، استقرائيّة وصفيّة تحليليّة، جمعت بين الجانب النظري والجانب الميداني. وتمّ الاعتماد فيها على ثلاث نظريات أساسيّة لتحليل إشكاليّة الدراسة وتمثّلت في النظريّة البنائيّة الوظيفيّة، نظريّة الصراع ونظريّة التنشئة الاجتماعية ومضمونها الثقافي. كما تمّ الاعتماد على تقنيات الملاحظة والمقابلة وجلسات الحوار والاستبيان في كل قطر مغربي.

تكوّنت العيّنة من (2500) شاب وفتاة بمعدّل (500) مفردة لكلّ قطر مغربي (تونس، الجزائر، ليبيا، موريتانيا، المغرب) وتمّ اختيار العيّنة من الأعمار ما بين (15-35) سنة مع مراعاة خصوصيّة مختلف الفئات الاجتماعية والمهنية والمناطقية على مستوى كل بلد عند اختيار العيّنة.

قامت الدراسة على مجموعة من الأهداف أهمّها:

- تشخيص أوضاع الشباب المغربي ورصد آرائهم واتجاهاتهم ومواقفهم إزاء مجموعة من القضايا ذات العلاقة بمشاغلهم وحقوقهم،
- تنمية الحوار مع الشباب والإسهام في تعزيز التواصل التربوي والاجتماعي داخل الأسرة والمدرسة والعمل ومؤسسات المجتمع المدني،
- استخلاص القواسم المشتركة التي تساعد على رسم استراتيجية مغربية لرعاية الشباب.

من أهمّ النتائج التي توصّلت إليها الدراسة:

- إنّ من أبرز خصائص فئة الشباب المغربي هي الاختلاف والتنوّع،
- إنّ مدلولات "ديمقراطية التعليم" "العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، ليس لها وجود فعليّ في الواقع بل إنّ المحسوبية والزيونية والمحابة هي الضاغطة على منظومة المجتمع،
- الفئة المتعدّسة هي فئة تحت وصاية الأسرة في الغالب وتعتبر استثمارا بالنسبة للوالدين. وفي المقابل نجد أنّ الواقع الاقتصادي المغربي يعاني من القطيعة بين المؤسسات التي تنتج المعرفة والمؤسسات الاقتصادية،
- الشعور الجمعي المشترك لدى أفراد العينة يتأثّر من خلال القاسم التاريخي والوازع الديني والتراث الثقافي، ولكنّ هذا الارتباط لا يوظّف في بناء مقاربات التطوير الفردي والجماعي.
- انتهت الدراسة الى طرح تساؤلات إشكالية منها: علاقة التربية والتعليم والتكوين بالاقتصاد والشغل والتنمية والاستقرار الاجتماعي.
- ✚ أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع تحت عنوان " الأسرة والمدرسة والتلفزيون: دراسة في أنماط التنشئة الاجتماعية الجديدة". (نبيلة بشوال بحرون، 2012).
- عالجت الدراسة الإشكالية المتمثلة في أننا نعيش اليوم مرحلة إعادة إنتاج لعلاقات اجتماعية داخل المؤسسات المجتمعية الكبرى كالأسرة والمدرسة. والتي قد تكون سببا في بروز العديد من المشكلات والتحديات التي تحدث نتيجة التضارب بين الاتجاهات القديمة والاتجاهات الحديثة.
- وافترضت الدراسة تراجع دور الأسرة التونسية وكذلك دور المدرسة في عملية التنشئة الاجتماعية نتيجة تنوّع المرجعيّات وتضاربها أحيانا، وذلك لفائدة التلفزيون الذي يعتبر وسيطا جديدا يلعب دورا هاما في التأثير في وظائف كلّ من الأسرة والمدرسة.
- وتمثّلت دوافع التّركيز على الفئة العمرية الشابة وتحديد فئة الشباب المدرسي، في كونها تعتبر الفئة المستهدفة من الغزو الإعلامي والثقافي العالمي. هذا إلى جانب ما يمكن ملاحظته من فوارق في أنماط التنشئة الاجتماعية والثقافية وأساليبها، بين الأجيال السابقة وجيل العقدين الأخيرين.

اعتمدت الدراسة بشكل أساسي على المقاربة التفاعلية الرمزية مع تدعيمها بمقاربة عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو. وجمعت بين التقنيات الكمية والكيفية: الاستبيان، العينة، الملاحظة والمقابلة. وتكوّنت عينة الدراسة من (400) مفردة موزعة بالتساوي بين تلاميذ المعاهد الثانوية وأولياء الأمور و(15) مقابلة مع إطار الإشراف والمربين في المعاهد والمختصين في المجال الاجتماعي والإعلامي وقد تمثّل المجال الجغرافي للدراسة في عدد (02) من المعاهد الثانوية بتونس الكبرى.

أظهرت نتائج الدراسة:

- أنّ وسائل الإعلام والاتصال تلعب دوراً هاماً في عملية التنشئة الاجتماعية للأبناء. بل إنّها أصبحت رافداً أساسياً يستقي منه الناشئة قيمهم ومعاييرهم الاجتماعية ومعارفهم ومهاراتهم العلمية والعملية، وهو ما يفتح باب الاختراق الثقافي ونشر ثقافة الآخر،

- أهمية الرأسمال الثقافي والاقتصادي والاجتماعي للأبوين، ودوره في التربية والتنشئة الاجتماعية للأبناء وفي نموهم النفسي والاجتماعي. الأمر الذي يعكس الأهمية القصوى للأسرة في المجتمع التونسي. بالرغم من التباعد المستمر في العلاقة القائمة بين الآباء والأبناء وتراجع دور الأسرة أمام تزايد تأثير التلفزيون،

- شهدت المدرسة تغيرات جذرية أفقدتها دورها البارز في عملية التنشئة الاجتماعية، وتسربت إليها مظاهر الأزمة والإخفاق التي تنطلق أساساً من الانقسام الشبه تام بين مخرجات التعليم وسوق الشغل والعجز عن ضمان فرص العمل. إضافة إلى بروز المنافسة الشرسة بينها وبين وسائل الإعلام فيما يتعلق بالمطالعة والحصول على المعلومة.

انتهت الدراسة إلى التساؤل عن السبيل لتحقيق التكامل المنشود بين مؤسسة المدرسة والأسرة والتلفزيون والأدوار والاستراتيجيات الجديدة لكلّ منها.

أهم نقاط الالتقاء بين الدراسات السابقة

حاولت هذه الدراسات، البحث في مسألة القطيعة الحاصلة بين أدوار المؤسسات المجتمعية وبين مشاغل واهتمامات واحتياجات الفئات العمرية (15-35) سنة، وانعكاسات ذلك على الفرد والمجتمع. خاصة، في إطار بروز متغيّر الغزو الثقافي وتكنولوجيا الاعلام والاتصال. غير أنّ تعميم نتائج هذه الدراسات، يبقى مرتبطاً بإطار المعاينة وتاريخ ومكان الإنجاز والظروف المحيطة به.

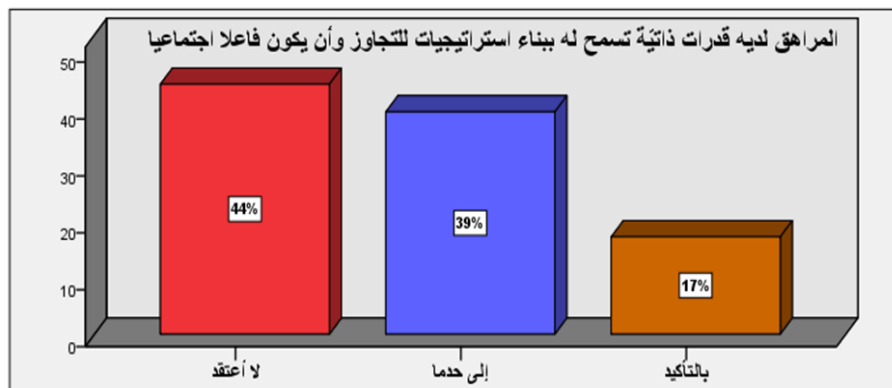
المنظومة التربوية ونقائصها البيداغوجية

يزدهب Durkheim إلى القول بأن التربية تكسب الانسان انسانيتته، فبواسطتها يستطيع المجتمع ان "يُوجدَ في الانسان إنسانا آخر" (Emile Durkheim.1995.p103) فالتربية، بحسب Durkheim، هي "فعل للبالغين يمارسونه على الجيل الذّي لم ينضج للحياة الاجتماعية، وهدفها هو إستثارة وتنمية مجموعة الاستعدادات الجسميّة والذهنيّة والأخلاقية لدى الطفل بمقتضى ما يفرضه المجتمع السياسي والوسط الذي يعيش فيه." (Emile Durkheim.1995.p51) وفي هذا القول تأكيد على البعد القهري والإكراهي الذي يمارسه المجتمع ومؤسساته في علاقته بالفرد ونفي لامكانية الاختيار ف "ليس مفيدا أن نعتقد أننا نُربّي أطفالنا كما نشاء، إنّنا مُلزَمون باتباع ما يسود في المجتمع الذي نعيش فيه." (Emile Durkheim.1995.p72)

وبالرغم من وقوع الأفراد تحت ضغوطات وإكراهات البنيات، إلّا أنّهم يبقون على هامش من الإستقلالية عن العوالم الاجتماعية وهو ما يسمح لهم بتشكيل خياراتهم وتمثلاتهم. حيث أنّ "الفرد باعتباره فاعل يقوم بصناعة خيارات عديدة على المستوى اليومي، وتقع هذه الخيارات تحت ضغوط الميادين الاجتماعية، حيث تؤدّي دورها في تحديد أفعال الأفراد وسلوكهم اليومي." (عبد الله عبد الرحمان يتيم، 2011، ص59)، فالأفعال والروابط الاجتماعية والممارسات اليومية، بحسب بيير بورديو، ليست "تعبيرا عن إملاءات البنية ولا تجسيدا لإرادة واعية وحرّة، إنّما يعود الأمر إلى جدليّة الخضوع والابتكار معا." (منصف المحواشي، 2004، ص110).

وفي هذا السياق يعتبر التلميذ المراهق اليوم، بحسب إفادة عينة الإطار التربوي، غير قادر على بناء استراتيجيات للتجاوز تسمح له بأن يكون فاعلا اجتماعيا وذلك بنسبة (44%) مقابل (17%) يرون خلاف ذلك. فالتلميذ المراهق اليوم يحتاج إلى مزيد الإحاطة والتّحفيز وتوفير المناخ المدرسي والبيداغوجي الملائم لاستثمار طاقاته وتحويلها الى منتج معرفي منتج للثروات الاقتصادية والتكنولوجية.

رسم عدد (1):

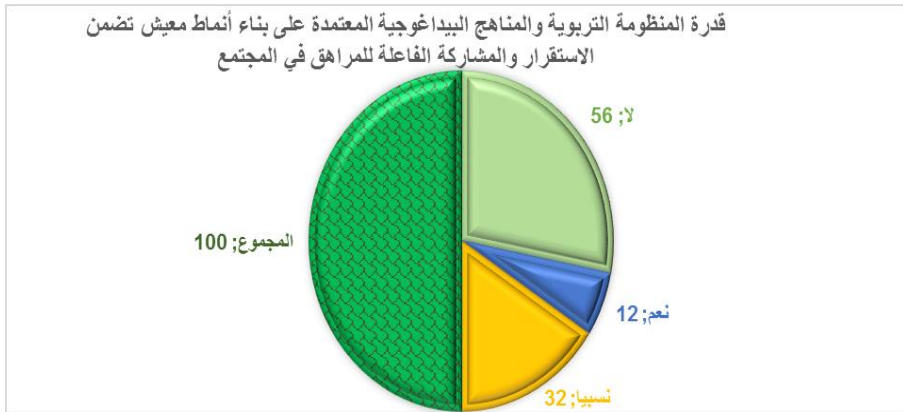


لا بدّ من الإقرار بأنّ بناء الإنسان، في المجتمعات الحديثة، يبدأ بتنمية قدرات الفرد وتطوير مهاراته ومكتسباته التعليمية، وتفعيل دوره الاستراتيجي كعنصر فاعل في مسار تشكيل المجتمع وتطوير مؤسساته بحسب ما يقتضيه الراهن المحلي والعالمي. ذلك أنّ نسق التحوّلات الذي يشهده العالم على جميع المستويات، أوجد الحاجة إلى أنماط تربويّة وتعليميّة تقطع مع الثوابت وتساعد على تنمية مهارات النّقْد والابتكار والتّجديد، باعتبارها آليّات أساسيّة لمواكبة التحوّلات الاجتماعيّة والتكنولوجيّة والاقتصاديّة وخاصة إكتساح سوق العمل المتغيّر بشكل سريع ومتواصل.

وفي هذا السياق، نجد أنّ المنظومة التربويّة الحاليّة في تونس، تقريبا، عاجزة على إنتاج موارد بشريّة قادرة على تحقيق الفعل الاجتماعي وعلى مواكبة مختلف أوجه التغيّر الاجتماعي والثقافي. من ذلك أنّ "طرق التدريس إضافة إلى الوسائل التعليمية المعتمدة لا تزال تقليدية وتفتقر في مجملها إلى المرونة اللازمة ولا تراعي اختلاف أنساق التعلّم لدى التلاميذ واحتياجاتهم الخصوصية." (وزارة التربية، 2016، ص 51-52).

بل إنّ (56%) من أفراد عيّنة الإطار التربوي يقرّون بعدم قدرة المنظومة التربوية والمناهج البيداغوجيّة المعتمدة في تونس على بناء أنماط معيش تضمن للمراهق الإستقرار والمشاركة الفاعلة في المجتمع الأمر الذي يساهم في نفور المراهق من التعلّم ويحدّ أيضا من دافعيّة الإطار التربوي. كما أنّ "

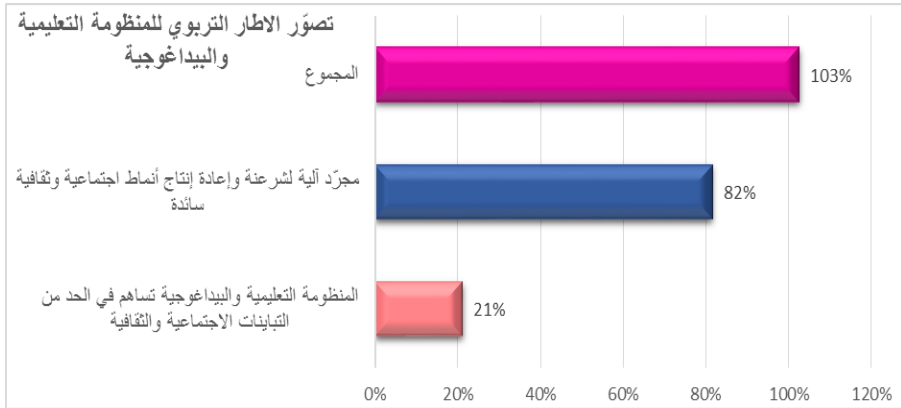
اللجوء الى النيابات بل أحيانا التعويل المتزايد على النواب خاصة في السنوات الأخيرة في بعض الجهات التي تشهد نفورا من قبل الإطار التربوي ساهم في انحدار مستوى أداء المنظومة التربوية، ما أدى إلى تزايد التفاوت الجهوي بين المؤسسات التربوية واتساع الفجوة بينها في مستوى الأداء والنتائج... (وزارة التربية، 2016، ص 52). ولذلك لا بدّ من الاشتغال على إدخال التغييرات، الماديّة واللوجستية والبشرية، الضامنة لنجاعة المناهج التربوية وجودة مخرجاتها.



واستنادا على ما تقدّم، يمكن القول بأنّ المنظومة التعليمية والبيداغوجية تعتبر مجرد آلية لشرعنة وإعادة إنتاج أنماط إجتماعية وثقافية سائدة وهو ما ذهب إلى تأكيده (82%) من مفردات عيّنة الإطار التربوي مقابل (21%) منهم اعتبروا أنّ هذه المنظومة قادرة على المساهمة في الحدّ من التباينات الاجتماعية والثقافية. فالسعي إلى الإرتقاء الإجتماعي وتحقيق الذات وبناء المكانة الاجتماعية مرتبط بمدى توفر فرص متكافئة للجميع أمام التعليم.

ولكنّ المتابع للشأن التربوي والتعليمي في تونس اليوم، يدرك تماما وجود فوارق عديدة بين المؤسسات التعليمية من حيث أولا التمييز بين المؤسسات التربوية العمومية بالمناطق الحضرية الأوفر حظاً عن غيرها من المؤسسات، ثمّ ثانيا ممارسة مبدأ الإنتقاء من طرف مؤسسات دون أخرى والذي يصبّ في صالح شرائح اجتماعية هي الأوفر حظاً من حيث امتلاكها للرّسائيل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي تسمح لأبنائها بالإلتحاق بالمعاهد النموذجية أو الخاصة وضمان خيارات أوسع للإرتقاء والتفوّق والهيمنة على آليات الإنتاج المعرفي والتقني الحديثة والسيطرة على استخدامات نتائج العلم والتكنولوجيا وتطويرها لخدمة مصالح القوى الاجتماعية المهيمنة في المجتمع.

رسم عدد (2):



الفضاء المعهدي : الموجود والمنشود

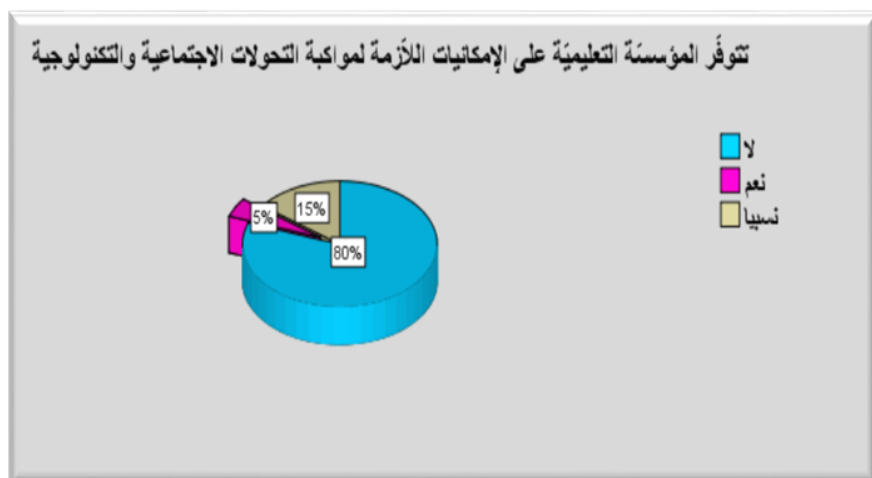
ثمة ارتباط عضوي بين الفضاء المدرسي وبين جودة التعليم، بينه وبين سيورة التعلم وبناء المهارات واكتساب المعارف الانسانية والربط بينها وبين مقتضيات المعيش اليومي الفردي والمجتمعي. ومن هنا تتأني أهمية تهيئة الفضاء المدرسي كشرط أساسي لمواكبة التحولات الاجتماعية والتكنولوجية والثقافية والاستجابة لمقومات الإرتقاء بالفعل التعليمي والتربوي. في المقابل، تؤكد نتائج الدراسة الميدانية بنسبة (80%) أن المؤسسة التعليمية التونسية لا تتوفر على الامكانيات اللازمة لمواكبة التحولات الاجتماعية والتكنولوجية في حين أقر (15%) من الإطار التربوي توفر هذه الإمكانيات ولو بشكل نسبي وذلك مقابل تأكيد (5%) منهم على أن الامكانيات اللازمة متوفرة بالمؤسسة التعليمية.

ونستنتج من خلال الدراسة الميدانية، أن "مستوى الخدمات التعليمية والتربوية بالفضاء المدرسي دون المطلوب ذلك أنها لم تواكب التطورات التكنولوجية والبيداغوجية التي عرفها هذا المجال" * وبالتالي فإن "ضعف مواكبة النظام التربوي للتغيرات المتسارعة والتحولات العميقة والمتلاحقة التي

* مقابلة نصف موجهة مع (ع. م) أستاذ مكلف بعمل إداري بالمعهد الثانوي باب الخضراء.

يشهدها العالم عموما والمجتمع التونسي خصوصا ساهم في نفور التلاميذ من مقاعد الدراسة." (وزارة التربية، ص 49)

رسم عدد (3):



علاوة على ما تقدّم، تسجّل المؤسسات التعليمية التونسية نقصا شديدا في مستوى اعتماد التقنيات التكنولوجية الحديثة حيث أكّد (51%) من التلاميذ عدم استخدام هذه التقنيات في تقديم الدروس مقابل إقرار (36%) منهم بأنّ استخدام التقنيات الحديثة لا يتمّ بشكل دائم وإنّما أحيانا، في حين أفاد (13%) من التلاميذ بأنّ شرح الدرس يتمّ بالإعتماد على هذه التقنيات المتوفرة بالمعهد.

ويمكن تفسير هذا النقص، إلى جانب عدم توفّر التجهيزات الضرورية للغرض، فإنّ المتوقّر منها بالكاد يفي باحتياجات أقسام إختصاصات العلوم التقنية والإعلامية كما أنّ المعطّب منها لم يتمّ إصلاحه أو لم يعد قابلا للإصلاح.[†] بالإضافة إلى ذلك فإنّ غياب الدافعية ولامبالاة بعض الأطر التربوية وتشبّثهم بالطرق التقليدية في تقديم الدرس تمثّل حاجزا حقيقيا أمام تعزيز استخدام التقنيات التكنولوجية الحديثة وتطوير المناهج التربوية المعتمدة ذلك أن أساليب التدريس التقليدية لم تعد

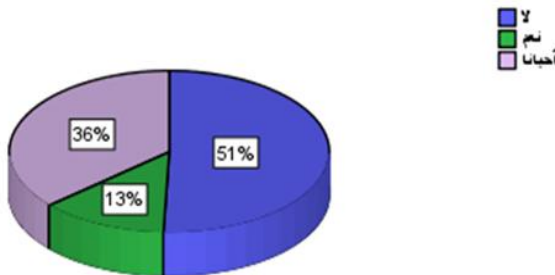
[†] مقابلة استكشافية مع (أ.م) برتبة قيم عام بمعهد شارع 9 أفريل 1938 تونس1.

تخدم النظام التربوي بل إنها تحدّ من قدرته على مواكبة التحولات العميقة والمتسارعة بل تجعل من التعليم ومن المعهد فضاء منقّر للتلميذ.[‡]

وتجدر الإشارة إلى أنّ ما توصلنا اليه من نتائج ميدانية في هذا الصدد، يتطابق مع البيانات التي أوردتها وزارة التربية، بالمخطط الاستراتيجي القطاعي التربوي. حيث تمّ الإقرار بأنّ المنظومة التربوية لا تزال "تشكو ضعف إدماج تكنولوجيات المعلومات والاتصال في عمليات التعليم والتعلم، إذ لا تزال المستلزمات المادية غير متوفرة بالكيفية المطلوبة إضافة إلى ضعف تكوين بعض المدرسين في المجال والافتقار إلى تصوّر استراتيجي شامل في الموضوع." (وزارة التربية، ص 59)

رسم عدد (4):

الاعتماد على التقنيّات التكنولوجيّة الحديثة في شرح الدرس



إنّ ما أوردنا من صعوبات ونقائص، تدلّ على محدوديّة قدرات المنظومة التربويّة التونسيّة على مواكبة التحوّلات التكنولوجيّة والتحاق مواردها البشريّة بركب الكفاءات عالية التصنيف عالمياً، لا يغنينا عن الإشارة إلى تراجع المستوى الاجتماعي والاقتصادي كأحد أهمّ المعوقات أمام المدرسة التونسيّة.

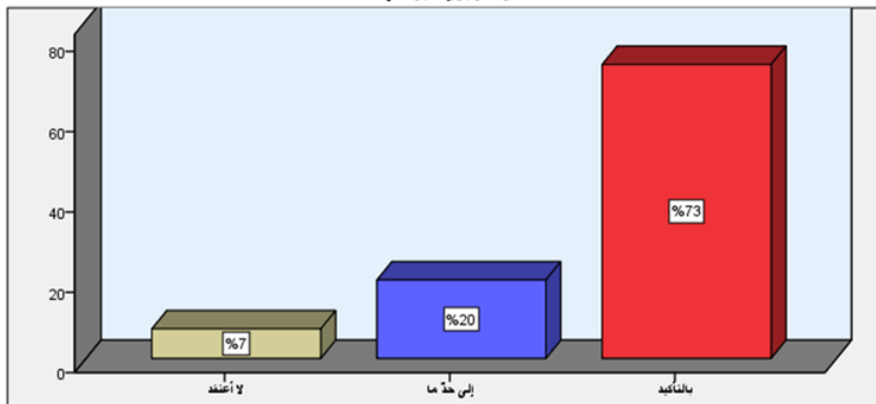
[‡] مقابلة نصف موجهة مع (ف. ب) برتبة قيم عام بالمعهد الثانوي باب الخضراء تونس 1.

فالعملية التعليمية برمتها تتطلب توفير إمكانيات مادية ولوجستية وبشرية ضخمة، تعجز الهياكل المشرفة على قطاع التعليم عن توفيرها جزاء تراجع المستوى الاقتصادي وتضائل حجم التمويلات المخصصة للمؤسسات التربوية، مقابل الإرتفاع المشطّ والمتواصل لتكلفة الموارد والتجهيزات... فالصعوبات التي تواجهها المدرسة اليوم هي في جزء كبير منها نتاج لتراجع المستوى الاجتماعي والاقتصادي وانعكاساته السلبية على الفعل التعليمي. فالعوامل الاقتصادية والاجتماعية هي من أهم أسباب "تواصل ظاهرة الفشل المدرسي والانقطاع المبكر عن الدراسة دون اكتساب الكفايات الضرورية لمجابهة معترك الحياة..." (وزارة التربية، ص 49)

وقد أكد الإطار التربوي بنسبة (73%) أنّ تراجع المستوى الاجتماعي والاقتصادي له انعكاسات سلبية على الفعل التعليمي وعلى العملية التعليمية والتربوية برمتها كما أنّ هذا الافتراض صحيح إلى حدّ ما بحسب إفادة (20%) من الإطار التربوي في حين يذهب (7%) منهم إلى الإقرار بعدم صحّة ذلك.

رسم عدد (5):

تراجع المستوى الاجتماعي والاقتصادي له انعكاسات سلبية على الفعل التعليمي وعلى العملية التعليمية والتربوية برمتها

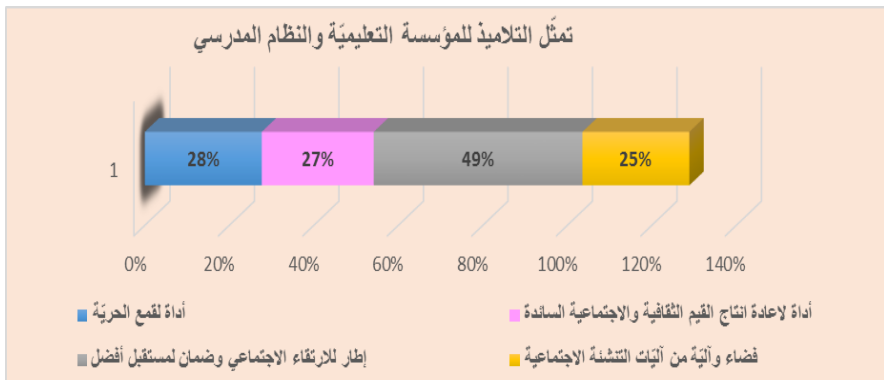


بالرغم من النقائص العديدة التي تسم المنظومة التعليمية التونسية بجميع مستوياتها إلّا أنّ المدرسة تبقى دائما أساس المجتمع، حاضره ومستقبله. فالمدرسة، "ليست فقط فضاء لتعلم الأشياء، المعارف، التقنيات، إلخ..، إنها كذلك مؤسسة لإصدار الحقوق ومنح الطموحات في نفس الوقت." (

(Pierre Bourdieu.1984.p147

لذلك، وبالرغم من الخيبات جزاء تراجع دور المدرسة في عملية البناء المجتمعي فإنها لازالت تمثل بالنسبة للتلميذ إطارا للإرتقاء الاجتماعي وضمانا لمستقبل أفضل وذلك بحسب (49%) من إجابات عيّنة التلاميذ مقابل اعتبارها أداة لقمع الحرية بنسبة (28%) وأداة لإعادة إنتاج القيم الثقافية والاجتماعية السائدة بنسبة (27%) في حين بيّنت أجوبة (25%) من التلاميذ أنّ المؤسسة التعليمية والنظام المدرسي يمثلان بالنسبة لهم فضاء وآلية من آليات التنشئة الاجتماعية.

رسم عدد (6):

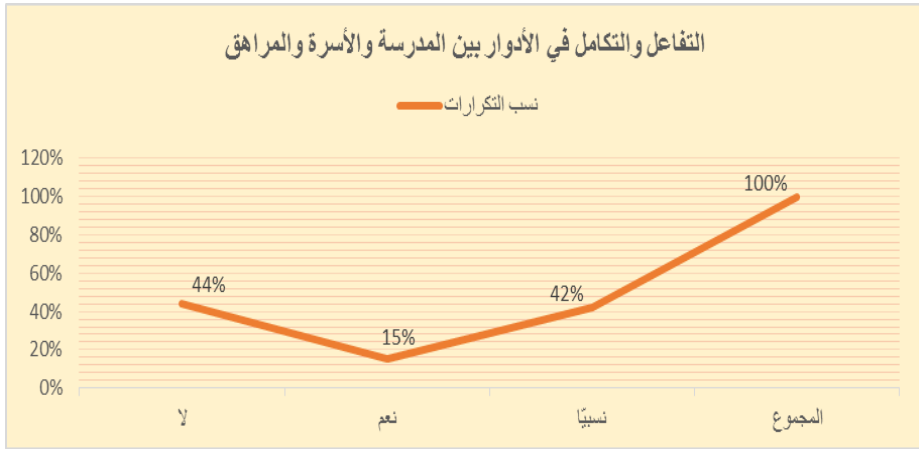


هيئات ومؤسسات التنشئة الاجتماعية: الممارسات الواقعية وتحديات التحوّل الرقبي، الثقافي والاجتماعي

يمثل التفاعل بين هيئات ومؤسسات التنشئة الاجتماعية و التكامل في الأدوار بينها، عاملا حاسما في تقويض التباينات والرفع من كفاءة الأطراف المتداخلة في الشأن التعليمي على مقاومة التفاوت الاجتماعي والثقافي، والحيولة دون إعادة إنتاج أنماط ثقافية واجتماعية خاضعة لمنطق الهيمنة على الفضاء الاجتماعي وامتلاك رساميل التموقع صلب المجتمع. ولعلّ ما يزيد أهمية الموائمة في الأدوار بين مختلف المؤسسات الاجتماعية، سرعة التحوّل التي تسم مجتمع اليوم وارتفاع تكلفة مجازاة نسق التطور، يضاف إلى ذلك التشابك بين المحامل التكنولوجية والتواصلية والقيمية والثقافية وتحكمها في نسق تشكّل أنماط معيش الأفراد والمجتمعات.

وفي هذا السياق تكشف نتائج الدراسة المستوى الضعيف بل وأحيانا انعدام التفاعل والتكامل في الأدوار بين المدرسة والأسرة والمراهق، باعتباره محور العملية التنشئية، بنسبة تصل الى (86%) من بينها (42%) تفيد أن علاقات التفاعل بين مختلف الأطراف تبقى من الأمور النسبية وذلك مقابل إقرار (15%) من الإطار التربوي بوجود علاقات تفاعلية تكاملية بين مختلف هذه الأطراف.

رسم عدد (7):



يفترض في المنظومة التعليمية أن تتضمن أنماط تربوية تسمح للتلميذ المراهق باستثمار المكتسبات القيمة والمعرفية والعلائقية التي تساهم في تشكيلها الأنماط التربوية الأسرية وتعرّز خلال سيرورة التنشئة المدرسية وتحديد مرحلة التعليم الثانوي، نظرا لارتباطها بفترة نمو وتطور شخصية التلميذ المراهق. ومن هنا تتأق أهمية المؤسسة التعليمية لا في توفير إمكانيات ووسائل النجاح ورسم مستقبل المراهق فحسب وإنما أيضا في توفير مناخ تعليمي ملائم لتطور مكونات شخصية المراهق وبلورة خصائصه الذاتية التفاعلية وتحقيق التعايش السليم وتجاوز الصعوبات الحياتية الآتية والمستقبلية.

كشفت نتائج البحث أن الأنماط التربوية التي يجسّمها النظام التعليمي خاصة من خلال النظام التأديبي والبيداغوجي ومختلف القواعد المنظمة للحياة المدرسية لم تعد تتماشى مع الخصائص السوسيو-ثقافية للمجتمع بحسب (56%) من عينة الإطار التربوي كما أن هذه الأنماط لا تتكامل مع الأنماط التربوية الأسرية ولا تسمح للتلميذ المراهق بالتعايش السليم وتحقيق الذات وتجاوز الصعوبات بحسب تصريحات (34%) من أفراد العينة وذلك مقابل التأكيد على وجود هذا التكامل بنسبة لم تتجاوز (10%).

وفي هذا السياق نستنتج أنّ "الفضاء المدرسي بالنسبة إلى المراهق أصبح شبه سجن مفتوح مقنّن بالدخول والخروج...وهذا ناتج أساسا عن التناقضات بين المؤسسة التربوية والفضاء الخارجي، برامج لا تتطابق مع الواقع، ضعف الفعل التربوي وتضائل القيمة الرمزية للمؤسسة التربوية كقيمة اجتماعية قادرة على رفع المتعلّم في السلم الاجتماعي".[§]

رسم عدد (8):



أكّدت نتائج البحث أنّ التحوّلات الاجتماعية والتكنولوجية خلقت حالة من القطيعة لدى المراهقين بين أنماط المعيش التي تفرّغها المدرسة والأسرة وتلك التي تنتجها آليات التنشئة الجديدة، الفضاء الافتراضي، تكنولوجيا المعلومات،... بإجماع (66%) من أفراد عيّنة الإطار التربوي في حين اعتبر (29%) أنّ هذا القول يبقى نسبيا وبالمقابل لا يتّفق (5%) منهم مع هذا القول.

[§] مقابلة نصف موجهة مع (ج. ع.) برتبة قيم عام رئيس فوق الرتبة بمعهد شارع 9 افريل 1938.

رسم عدد (9):



الطفل هو في الأصل واجهة انعكاس للأبوين يتم استثماره بمشاعر مختلفة مشروطة بسياق اجتماعي وثقافي وعائلي، وتاريخ هذا السياق حاسم من ناحية كونه يوجّه مصائر البشر ويشكل العادات والهابيتوسات وخطوط السلوك والتوجهات التي يتبّعها الفرد. (V. De Gaulejac.2009.p26) وبهذا المعنى فإنّ الطفل المراهق هو أولاً خاضع لانتظارات ومتطلبات الأبوين والأسرة ثمّ لمعايير المحيط والقيود المؤسّساتية وللأعراف المقرّرة وللقواعد الاجتماعية. وبالتالي فإنّ المراهق كي يثبت وجوده الخاص يدخل في ديناميكية مزدوجة يعتمد فيها على خضوعه الأولي في محاولة للتحزّر وبناء الذات حتّى يصبح فاعلاً. (V. De Gaulejac.2009.p24-27)

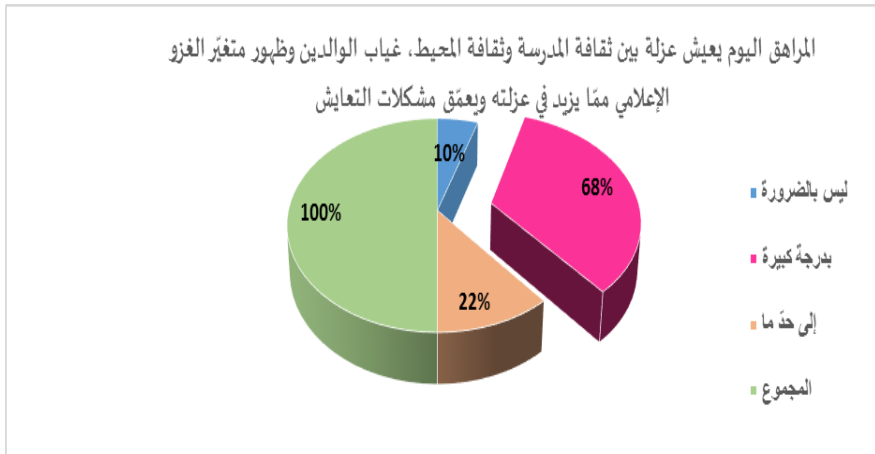
تفيد نتائج الدراسة بنسبة (68%) أنّ التلميذ المراهق اليوم يعيش بدرجة كبيرة عزلة بين ثقافة المدرسة وثقافة المحيط، غياب الوالدين وظهور متغيّر الغزو الإعلامي وخاصة الانترنت والتي تزيد عزلته وتعمّق مشاكل التعايش، وقد أكّدت عيّنة الإطار التربوي صحة هذا الافتراض إلى حدّ ما بنسبة (22%) في حين دلّت نسبة (10%) على أنّ ما ذهبنا إلى افتراضه ليس بالضرورة صحيح.

ويمكن أن نخلص إلى أنّ التحولات الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية "زادت وعمّقت عزلة التلميذ المراهق فأصبح يعيش غربة وجودية"*** وبالتالي لا بدّ من "إعطاء أهمية كبيرة للحوار والتأطير

** مقابلة نصف موجهة مع (ج. ع) برتبة قيم عام رئيس فوق الرتبة بمعهد شارع 9 افريل 1938.

داخل المؤسسة التربوية لمساعدة التلميذ المراهق على تجاوز المشاكل التي تحول دون اندماجه وتعطّل إنتاجيته^{††}

رسم عدد (10):



النتائج والتوصيات

النتائج

يمكن ان نوجز أهمّ النتائج التي خلصت لها الدراسة في الآتي:

- بالرغم من المراهنة على التعليم كأداة أساسية لبناء الدولة التونسية منذ استقلالها، والتّعويل على العنصر البشري لتحقيق رقيّها وتقدّمها، إلّا أنّ الاستثمار في تكوين الرأس مال البشري بقي دون المأمول. بل نلاحظ تضاعف التمويلات المخصّصة للتربية والتعليم والتكوين مقارنة مع جسامّة التحديات التي يطرحها التحوّل الاجتماعي والثقافي.
- لم تتمكّن المنظومة التربوية والتعليمية في تونس اليوم، من مواكبة نسق التحوّل الرقمي والتكنولوجي. ويمكن القول أنّها فشلت في معالجة أسباب هذا التخلف، وليس أقلّها انعدام التجهيزات الضرورية للغرض وعدم صيانة ما توقّر منها.

^{††} مقابلة نصف موجهة مع (ص.ر) أستاذة فرنسية بالمعهد الثانوي باب الخضراء.

- نسجل وجود هدر للموارد البشرية وعدم نجاعة على مستوى التصرف في الامكانيات المادية واللوجستية المتوفرة وتوجيهها لسدّ الاحتياجات ذات الأولوية، مثل التكوين المستمر لفائدة إطار التدريس وهو ما يفسّر إلى حدّ ما غلبة الأساليب التقليدية في طرق التدريس ممّا يفقدها عناصر الجذب والتحفيز، ويباعد بينها وبين متطلبات العصر على المستوى البيداغوجي والتّعليمي والثقافي. وهذا، تقريبا، ما ذهب إلى تأكيده وزير التربية في تونس السيد "ناجي جلول"، في الذكرى السبعين لتأسيس منظمة اليونسيف، بالقول أنّ "المدرسة مُحبّطة تنتج كهولا مُحبّطين... كما أنّ البيئة المدرسية تفتقر إلى البنية التحتية الصالحة ومستلزماتها".

- ربطا مع ما تقدّم، لا يمكن إغفال الإشارة إلى تأثيرات الوضع الاقتصادي المأزّم الذي تمرّ به تونس على امتداد العقود الأخيرة وانعكاساته السلبية على الأسرة والمدرسة. خاصّة من حيث القدرة على توفير مستلزمات تدريس الأبناء، حيث غالبا ما تعجز الاسر وكذلك المؤسسة التربوية عن توفير التّجهيزات والموارد الضرورية لمواكبة المعارف والتقنيّات الحديثة.

التوصيات

استناسا بما تمّ التوصل إليه من نتائج، نقترح بعض التوصيات التي نُوردها موجزة كالآتي:

- كسب رهانات التحوّل التكنولوجي ليس بالعملية العشوائية وإنما هو مسار معقّد يتطلب بناء استراتيجيات وبرامج تضمن الإستخدام الأمثل لموارد الدولة والمجتمع، وترشيد الإستثمار في قطاع التعليم وإدارته على النحو الذي يكفل تحقيق التغييرات المنشودة وتلاءمها مع احتياجات المدرّسين والمتمدرّسين الأتية منها والمستقبلية، ولعلّ أوكدها الإشتغال على تطوير مهارات وقدرات الموارد البشرية التعليمية والتعلّمية منذ بداية السّلم التعليمي.

- تجديد المقاربات البيداغوجية أصبح اليوم حتمية يستحيل دونها مساهمة ركب التغيّرات المتسارعة على كلّ الأصعدة، ولا بدّ من اخضاع هذا التجديد الى مقاربات علمية ومنهجية دقيقة تستجيب لمقتضيات التعلّم وتتكامل مع أنماط معيش التلميذ بما يضمن التوافق الأمثل بين الفضاء المدرسي و الأسري والمجتمعي.

- انفتاح المؤسسة التعليمية على محيطها وتفعيل أدوار كلّ الأطراف المعنية بالشأن التربوي: التلميذ الأسرة، المربي، هياكل المجتمع المدني... وتكثيف الحوار والتفاعل بين مختلف الفاعلين والتحفيز على المشاركة الفعلية في النهوض بمؤسسات التعليم العمومي وتطويرها، ذلك أنّ فشلها يعني بالضرورة فشل المجتمع والأفراد والعكس صحيح.

خاتمة

حملت القفزة التقنية والمعلوماتية التي عرفها العالم في طياتها منافع ضخمة للبشرية، ولكنها وضعت العوالم النامية أمام زخم من التحديات، ليس أقلها امتلاك البنى اللازمة لإدارة ما تقدمه التكنولوجيات الحديثة من خيارات ومعارف سريعة التجدد والتطور. هذا التسارع يعمق حدة الفوارق واللاتكافؤ أمام المعرفة التقنية ومُخرجاتها بين الدول، ولكن أيضا بين المؤسسات وبين الأفراد صلب المجتمع الواحد.

في هذا الإطار، فإنّ الرأهن الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي للمجتمع التونسي، إنّسجم بانعدام الثقة والقلق الدائم من الحاضر والمستقبل، في ظل سياقات تهيمن عليها الإكراهات وتضارب المصالح الداخلية منها والخارجية. يضاف إلى ذلك، ما تطرحه التحولات الاجتماعية والتكنولوجية من خيارات وبدائل وأنماط معيش مستحدثة، تتحكّم في الخصائص السوسيو-ثقافية للفرد والمجتمع وتستحيل معها وسائل الاعلام والاتصال إلى "مصدر للعنف الرمزي والقهر والتضليل والتسلّط والسيطرة." (محمد سيلا. نوح الهرموزي، 2017، ص 552)

وبالرغم من ثقل الرهانات المطروحة على جميع المستويات، فإننا نسجّل ضعف الوعي السياسي بأهمية كسب رهان التعليم وتكوين الموارد البشرية. حيث أنّ التراجع المتواصل الذي تسجّله سياسات التعليم العمومي، على مستوى حجم الإنفاق على التعليم والبرامج والمناهج والتطبيقات البيداغوجية، يدلّ على غياب الوعي السياسي بأهمية الإستثمار المطلق في التعليم لإدراك التحول الثقافي والإرتقاء إلى مستوى الإنتاج المعرفي، الذي يسمح بملاءمة مخرجات التكنولوجيا الحديثة مع الإحتياجات الفعلية للمجتمع.

بل إنّنا نكاد نجزم، أنّ الأمر تحوّل تدريجيّا إلى " سياسة ممنهجة من قبل الدولة تجلت في مختلف السياسات التي تبنتها في مجال التعليم، (...) وفي هذا الإطار جاء القانون التوجيهي للتربية والتعليم المدرسي الذي صدر في 23 جويلية 2002 والذي أسس لمرحلة وتطورات جديدة لمشروع التعليم في تونس أحدثت قطيعة مع متطلبات التنمية المحلية والداخلية وهيأت للاستجابة لمتطلبات الاستثمار الأجنبي الخاص والاقتصاد المعولم." (منير حسين، 2014، ص 15)

وبناء على ما تقدّم، فإنّ الوضع المأزمي الذي تشهده المؤسسات التعليمية التونسية اليوم، وخاصة تراجع المستوى التعليمي وضعف المناهج التعليمية والبيداغوجية، الفضاء المدرسي ونقائصه البنيوية والهيكلية، يحيلنا على ظاهرة مركّبة وشديدة التعقيد، "لا يمكن فهمها عبر عنصر تحليل واحد فهي تعكس أزمة تربوية ولكن أيضا أزمة لنمط مجتمعي ما فئى يتغير دون أن تقدر المدرسة على مجاراته أو

التكيف معه." (طارق بلحاج محمد، 2018) وهو ما "يخلف تداعيات كبيرة على المستوى الثقافي والتكنولوجي والعلمي ويفسر في جزء كبير منه التصحّر المعرفي الذي نعاني منه في زمن أصبحت فيه المعرفة والمعلومة أحد الشروط الأساسية لتحقيق التنمية والتقدم." (منير حسين، ص29)

مراجع الدراسة

المراجع العربية

- * انتوني غدنز. علم الاجتماع، ترجمة فايز الصبّاح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.
- * ديفيد إنغلز. جون هيوسون. مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة لما نصير، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013.
- * جميل حمداوي. "المفاهيم السوسيولوجية عند بيير بورديو"، الألوكة الثقافية، 2015. <https://www.alukah.net/culture>
- * المنصف ونّاس. الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية العربية، الدار المتوسطة للنشر، تونس، 2010.
- * المنصف ونّاس. "محاضرة حول المناهج الكيفية، ندوة تكوينية: أهمية المنهجية في العلوم الاجتماعية، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية CERES، تونس، 14-15 ماي، 2018.
- * نادية سعيد عيشور وآخرون. منهجية البحث العلمي في العلوم الاجتماعية، مؤسسة حسين راس الجبل، الجزائر، 2017.
- * اتحاد المغرب العربي: الأمانة العامة. دراسة أوضاع الشباب المغربي، نوفمبر 2012، PDF.
- * نبيلة بشوال بحرون. الأسرة والمدرسة والتلفزيون: دراسة في أنماط التنشئة الاجتماعية الجديدة، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2012.
- * عبد الله عبد الرحمان يتيم. "بيير بورديو أنثروبولوجيا"، إضافات، عدد 14، 2011.
- * منصف المحواشي. "مقولة التطبع في نظرية بيار بورديو: من المفهوم إلى الممارسة"، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد 128، تونس، 2004.
- * وزارة التربية: الإدارة العامة للدراسات والتخطيط ونظم المعلومات، المخطط الاستراتيجي القطاعي التربوي 2016-2020، تونس، 2016.
- * محمد سببلا. نوح الهرموزي. موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة، منشورات المتوسط، 2017.
- * منير حسين. الانقطاع المدرسي الإرادي: الظاهرة والأسباب، المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، المنستير- تونس، سبتمبر 2014. PDF

* طارق بلحاج محمد. "حين تفتقر المنظومة التربوية إلى "التميز""، جريدة الصباح، <http://www.assabah.com.tn> تاريخ الاطلاع: 26 جويلية 2018.

المراجع الفرنسية

- * Raymond Boudon. et al. , *Dictionnaire de sociologie*, Larousse, Coll. In Extensio, Paris, 2003.
- * Maurice Halbwachs. *La classe ouvrière et les niveaux de vie : recherche sur la hiérarchie des besoins dans les sociétés industrielles contemporaines*, Félix Alcan, Paris, 1912.
- * Pierre Bourdieu. *La distinction, critique sociale du jugement*, Les Éditions de Minuit, Paris, 1972, Cérès, Tunis, 1995.
- * Jean-Michel Bertholot. *Les Vertus de l'incertitude : le travail de l'analyse dans les sciences sociales*, Quadrige/PUF, Paris, 2004.
- * François De Singly. *Le questionnaire*, Armand Colin, 4e éd., Paris, 2016.
- * Emile Durkheim. *Education et sociologie*, 5e éd. PUF, Paris, 1995.
- * Pierre Bourdieu. *Questions de sociologie*, éd. Minuit, Paris, 1984.
- * V. De Gaulejac. « Vouloir être sujet », Sciences Humaines, n° 209, Novembre 2009.

المراجع الإنجليزية

- * David M.Newman. Jodi O'Brien. *Sociology, exploring the architecture of everyday life*, Fifth Edition, Pine Forge Press, London, 2004.